# المكان الشعري وهاجس المقاومة

د/ جعيرن ميهوب
جامعة عمار ثليجي الأغواط

**تمهيد:**

نشأ الشعر الجزائري وتبلورت ملامحه من خلال ملابسات التاريخ الخاص بهذه المنطقة من الوطن العربي،فقد كانت فترة العشرينات بداية تشكل النص الشعري الجزائري، كما تؤكد جل الدراسات التي تناولت تطوره التاريخي.بحيث"تتشكل النص الشعري الجزائري ...في جدلية تواجده وهوية انتسابه.."[1]

لكن الحقيقة التاريخية الأخرى، تفيد بأنّ الجزائر قطر لم ينفصل عن جذوره أبدا على الرغم من كل الضغوط المتلاحقة والمعاناة المريرة التي كانت تستهدف هويته وفصله عن جذوره الأصيلة.

هذه الضغوط اشتدّت بشكل واضح في فترة الاستعمار الفرنسي الذي استهدف مقومات الفرد الجزائري وحصانته، خاصة عندما يتعلق الشأن باللغة والعقيدة، اللّتان عَدّ المستدمر تدميرهما من أولوياته، لأنهما يمثلان رمز الوحدة الوطنية.

لكن كل المحاولات باءت بالفشل على المدى البعيد، فعلى الرغم من شدتها وخطورتها وتأثيرها في جوانب كثيرة متصلة بكيان المجتمع الجزائري، إلا أنّ الإنسان الجزائري بقي وفيا لأصله وانتمائه.

تعددت مظاهر الصراع وتنوعت أشكال الحرب في مناح شتى، واحتدم الصدام بين أفكار الآخر الغريب ومن سار على دربه، وبين الوطنيين الجزائريين المدافعين عن أصالة الشعب وعقيدته، وفي خضم ذلك الصراع بين الأصالة والتغريب، بين الهوية واللاهوية، بين العربنة والفرنسة، بين الجزأرة والاندماج، بين الوطنية والعمالة، كان للشاعر الوطني في زخم هذا الحراك والصراع، موقفا ملتزما بقضايا الأمة، فسجل شعريا موقفه تجاه ما يحدث، من خلال معايشته وتعايشه مع المراحل التاريخية المختلفة، التي سبقت الكلمة الفصل في أوّل نوفمبر54 .

لقد حدد الشعراء مواقفهم، وتخندقوا مع كل الجزائريين الوطنيين في مواجهة التغريب والمسخ التي مارسها المستعمر، تلك المواقف قد تجعل الدارس يسجل ما لهم أو ما عليهم، خاصة فيما تعلق بالولاء للجذور والأصول وخدمة للشعب والوطن. فالنص الشعري أداة بيد المبدع يستعملها كسلاح لدفاع الذات عن وجودها، بل تحمل كثير من الشفرات المهمة المتواطئ عليها بين المرسل والمتلقى لتنفيذ مشروع ما أو القيام بحراك معين.

إنّ بداية النص الشعري الجزائري الحديث –كما تؤكد كل الدراسات التي تناولت مضامينه– كانت بفنيات شعرية تقليدية تمت بصلات كثيرة لما كان عليه الرافد المشرقي، ومن ثم الصلة والتبعية للأصول الشعرية العربية القديمة، كانت متوفرة بشكل جلي تتحكم في الناحية الفنية، لذا نشأ القصيد الشعري الجزائري قصيدا تقليديا، خاصة ما يتعلق بالبناء الفني، شأنه شأن النص العربي الكلاسيكي الإحيائي في عمومه ."قد ساير (شعراء الجزائر)بطريقة أو بأخرى زملاءهم في المشرق محاولين تتبع مسار التطور الذي كانت تنهجة القصيدة العربية العمودية بصفة خاصة، فإن تطور مسار الشعر العربي قد افرز بصفة اعم شعراء جزائريين كانوا على اتصال دائم بالثورة الشعرية الكبرى التي شهدتها الساحة المشرقية في ذلك الوقت."[2]

وعلى ضوء تلك المعطيات الأولى، نشأ النص الشعري الجزائري ملتزما بقضايا وطنه وأمته في مجالاتها المختلفة، فقد تفاعل مع الأحداث وسجل المواقف إزاءها على أساس الانتماء الوطني، القومي والعقائدي وقد أصّل محمد العيد هذا الشكل من الروابط القوية حينما قال:[3]

يسائلني عن نسبـــتي كل وافد ...عني وعن شعري وعن كنه مطلبي

فقلت لهم ارض العروبة موطني...ديني هو الإســـلام والقدوة النبي

ومن مطلبي جمع العروبة كلها ...على وحدة عظمى بشرق ومغربي

فمضمون الأبيات كما هو ظاهر يحدد نسبة الشاعر إبداعيا وعقائديا وقوميا، وهو مبدأ مشترك بين كل الوطنيين الجزائريين الذين يعد محمد العيد لسان حالهم والمعبر عن مشاعرهم وحتى عن أفكارهم.

لكن مادام الحديث عن الانتماء من جراء النص الشعري التواصلي، يجدر بنا أن نتساءل عن موقف الشاعر الجزائري من ظاهرة المكان التي تعد أهم سمة تعامل معها النص التقليدي، ونعني بها ظاهرة الطلل الذي يعد الميزة البارزة في شعرنا العربي القديم .

فما تجليات المكان وما دلالاته في النص الشعري الجزائري في مرحلة ما قبل ثورة نوفمبر المسلحة ؟ وهل حافظ الشاعر الجزائري –فنيا– عن ظاهرة الطلل وتعامل معها وفق الموروث الشعري القديم أم كان له موقفا آخر ؟

إنّ سبب هذا التساؤلات هو : سمة القصيد العربي الذي يحتل الطلل فيه الصدارة ويختزل كثيرا من العوامل والمقومات في نظم الشعر وفي قيّمه الفنّية والجمالية لدى شعراء العرب القدامى، ومن سار على دربهم في العصر الحديث.

إنّنا إذا سلمنا بأهمية الطلل كمكان يقف شامخا في مستهل القصيدة العربية القديمة، فهل كان توظيفه في الشعر الحديث من زاوية التقليد البحت، أي استحضار للشكل لضرورة فنية فقط ؟أم أنّ القالب التقليدي كان وعاء ضروريا في تلك المرحلة لصب المعنى الآني والتعبير عنه ؟

تلك تساؤلات في حقيقتها ليست جديدة على متتبعي الشعر الحديث في عمومه، لكن غايتنا ها هنا، هي محاولة الإجابة عن تعامل الشاعر الجزائري مع الظاهرة، وذلك أثناء المراحل الأولى من تشكل نصه الشعري .

## 1) استمرار النموذج المكاني القديم( الطلل)

كل المعطيات النقدية التي تناولت نشأت النص الشعري الجزائري -كما اشرنا سابقا- تؤكد نشأته التقليدية، ذلك ما جعلنا بداية نبحث عن مظاهر تلك التبعية ونحدد التعامل مع المكان من حيث بنائه وعلاقة الشاعر به وموقفه منه وحتى في التفاعل الشعري والشعوري بين الذات والمكان،إذ يمكن أن نحدد هذا التعامل في مظهرين أساسيين:

أولهما الحاجة إلى التقليد على اعتبار النماذج القديمة في الشعر العربي جديرة بالإحياء لاسترداد جماليات الشعر وترقية الذوق، وهو مبدأ تشبث به شعراء المدرسة الإحيائية مشرقا ومغربا فكان التقليد في كل النواحي الفنية للنص الشعري ومن ضمن ذلك رؤية المكان .

فقد تمظهرت تلك الرؤية في محاكاة المكان (الطلل) لأنه السمة البارزة في النص الشعري القديم، لذا تصدر الطلل أو حتى توسط قصائد شعراء العصر الحديث، وهكذا كان الطلل استمرارا للنموذج المكاني القديم.

أمّا المظهر الثاني فيحدد مفهوم الانتماء إلى المكان الجغرافي وضرورة الذود عنه وإظهار التعلق به أي أن الشاعر الحديث رسم لنفسه كيانا مرتبطا بالمكان، المكان الهوية، المكان الانتماء، المكان الوجود، أو ما أصبح متعارفا عليه بالانتماء الوطني. وفي هذا المفهوم الثاني تطورا نوعيا في التعامل مع المكان فرضته عوامل آنية من جراء ملابسات الحياة الجديدة.

لكن الملاحظ أنّ في كلتا الحالتين ينصب البحث الى ابعد من البنية البصرية للمكان في النص الشعري بل التركيز كله يستهدف المفاهيم الابعد في فلسفة المكان ودلالاته كمااشرنا إليها سابقا في بداية الفصل.أي أننا لن نقف عند مظاهر المكان الجغرافي بل سنحاول استنطاق الذات الشاعرة من خلال اعتبارها المكان ظاهرة تتجاوز المحسوس إلى اللاّمحسوس إلى الغيبي الكامن اللاّمتناهي.

إذن كما سبق القول، كان الطلل لازما من لوازم النص الشعري التقليدي، وهو المبدأ الذي حافظ عليه إحيائيو الشعر الحديث، سواء في أقطار المشرق أو المغرب.

فقد عده الحبيب مونسي:"هاجس القصيدة العربية أو خشبة الصلب التي يحملها الشعر العربي على عاتقه، وان حاول المحدثون التحلل منها إلا أنّ الطلل ظل يعمر القصيدة ويسكنها، وان لم يظهر على مطلعها لأنّ الغاية انصرفت عن الوصف الحسي ولكنها لم تنصرف عن فلسفة التحول والزوال والفناء."[4]

هذا يعني أنّ الطلل وان كان الشاعر العربي لم يتخلص من وطأته، إلاّ أنّ المفهوم قد تطور بحيث كان الطلل المكان عند الشعراء القدامى، مدعاة استحضار الماضي وتأمله في الحاضر من خلال المقارنة بين ما كان وما هو كائن ويعتمد في هذه المقارنة على الذكر الجغرافي للأمكنة على أساس أنّها مواقع للذكرى ومشاهد للحدث .

لكن الشعر الحديث قد طغى على استعماله للمكان الطلل،كثافة الرموز والإشارات ذات العلاقات النفسية، التي تصدر عن إيحاءات الذات من جراء تفاعلها مع الواقع، لهذا كان الطلل مكانا نفسيا أكثر من مكان جغرافي .

لذلك يتجلى لنا إنّ المكان الذي تجتاحه عوامل التغير والتحول والزوال والفناء، قد صار إدراك مفاهيمها في التوظيف الشعري، يحتاج إلى قراءة مجازية تعيد بعثه وإحياؤه، كما تعيد إلى هيكله التركيب وتمنحه عناصر الاختراق، التي كانت تعطيه حضوره، فالطلل رمزي الدلالة بامتياز، وإن ظهر أنّ المسالة شكلية ومجرد تقليد تبدأ به القصائد، لكنّ القضية أعمق من ذلك، فالشاعر الحضري لم يعرف البادية، و لم يعايش حياتها، لكن لذكرياته وهواجس نفسه وأحلامه وآماله المحطمة، أطلالا، فالدنيا التي زوت بساطها عنه ورفضته،أثارها في حياته دمنا ورسوما.

فالأطلال هنا تتخذ تجريدا يخرجها عن مواضعات الحسية المادية ويدخل بها تخوم النفس البشرية التي تتعارك على ساحتها عوامل الفناء والتغيير والتحول.

فالطلل معلم مستقر يتيح للشاعر أن يقوم بعملية مسح كبيرة لهذه التغيرات التي تعصف بالكيان البشري ولا تترك له فرصة إلاّ في رصدها ومتابعة قيمها وانعكاساتها ووقعها الممض.

هذه المعاني الجديدة بتخريجاتها النقدية التي تركز على كشف الكامن المستتر في رؤية الشاعر، هي التي تتيح لنا الولوج إلى بعض خفايا المكان الطلل في الشعر العربي الجزائري الحديث، الذي وظف المكان في أكثر من موضع، كمعلم يحمل دلالات تتخطى الشكل التقليدي لاستعمال الطلل.

هذا ما نلاحظه عند الشاعر الجزائري محمود دويدة[5] في مطلع قصيدة نشرها سنة 1926م:[6]

وقفت برسم العرب وقفة خضع

وقلت ضياعا مانظمتم من الـــدر

معاهد كانت والورى في جهـــالة

محط رحال العلم والعز والنصـــر

فلله ربع كم حبا الغرب ســـــؤددا

ومجدا يحار فيه عقل فتى الشعـــــر

يقول: انظروا ما شيدت يد علـــمكم

على الرغم مما غيرته يد الـــــدهر

ويندب بدر العلم إذ كان ســـــاطعا

بغداد نبراس الحقائق والفجـــــــر

ويبكي ويستبكي فيرسل أنـــــــهرا

من الدمع حتى فاض دمعي على صدري

هذا نموذج من الشعر الجزائري الذي أصل لعلاقة الانسان بالمكان- كما اشرنا سلفا- فمحمود دويـــدة يعـــد نموذجا للوطني المتمسك بجذوره، اعتمد لغة القدامى شكلا لكنه فجر معني النص الى أبعاد أخرى، فـــالمعنى الشـــعري الأوّل، يقف فيه الشاعر باكيا مستبكيا على عادة الشعراء القدامى في الوقوف على الأطلال غير أنّه لا يبكي أطـــلال حبيبة درس رسمها، وإنّما يبكي أطلال العرب " مستذكرا الأرومة والجذور والأفضال التي كانت للعرب على الغرب منذ قيام بغداد إلى أن خبا ذلك النور ...وبقيت الأطلال شواهد قائمة ...يمتلئ بالحسرة والأسى كلما طافت ذكرى من الذكريات التي تشعره بانتسابه للعروبة الضائعة في الجزائر"[7] .

إن الوقوف على الأطلال كما وقف دويدة قد لا يعني بالضرورة الحس المكاني ومؤثراته المادية، فهو يتجاوز الرؤية البصرية إلى الرؤية المتخيلة لأنّ المكان المقصود هو المكان التاريخي، هو مكان الحضارة والمجد الذي صنع سمعته، إذن المقصود هو ما يحمله من ذكريات تشدّ المرء إلى الماضي فتستفزه الذكريات ويستهويه الرجوع إلى الزمن السالف الذي تتحقق فيه الذات وتشعر بلذة البقاء.لأنّ"الارتداد إلى الواقع التاريخي المتمثل بالفكرة الحضارية والإحساس بذلك الانكسار الحضاري المتمثل بوعي الإنسان العربي باندثار حضارته"[8]هو هاجس آني له تداعياته في النص الشعري الحديث .

هكذا يبدو أنّ الطلل "لم يكن ظاهرة جاهلية وحسب إنما كان الطلل وسيظل شارة الشعـــر العربـــي ماضيا وحاضرا"[9]، لكن ليس بنفس الوعي الإبداعي والفني، بل بمتخيل ابداعي جديد من حيث الصورة والهدف.

هذا ما يسجل في نص الشاعر الجزائري-على ضوء النموذج السالف الذكر- أنّه قد تجاوز هيئة الحسي المنظور إلى هيئة المتخيل، فهو على كل حال، كان يثبّت عنصر التواصل الشكلي من جهة، ومن جهة أخرى يعبر عن الحسرة والألم من خلال ما ألم بوطنه، فالمعنى فيه شجب من جراء البكاء، وفيه ولاء للوطن من جراء الولاء لتاريخ الأجداد حتى وان صار المجد التليد أطلالا، هذه الحقائق جعلت الذات تدخل في مرحلة غياب وحضو،غياب المجد والسيادة والسطوة وحضور الاغتصاب والهيمنة والدونية التي صارت واقعا ماثلا. وفي نموذج آخر نقف على نوع من صورة التواصل مع النموذج المكاني القديم، فإن كان أبو نواس كما يشير الدكتور لحبيب مونسي قد كشف عن عمق العلاقة بين الطلل والشقاوة حين ما قال :

عاج الشقي على دار يسائلها

وعجت أسال عن خمارة البلد

لا يرقئ الله عيني من بكت حجرا

ولا شفى وجد من يصبو إلى وتد

غير أننا لا نشاطره رأيه القائل بان تمرد أبا نواس ليس تنصلا من المقدمة الطللية وإنما تنصل من عبء حمله الشعراء قبله[10]، لأن البيت الثاني من النموذج ينفي الرأي الأول، والمهم في هذا أننا نلفي الشاعر الجزائري السعيد الزاهري في العصر الحديث يقف موقفا مشابها في قصيدة نشرها 1924م:[11]

ورب باك على الماضين قلت له :

إنّ البكاء لشان الخرد الغيـــــد

هيا إلى عمل يجدي فحاجـــتنا

إلى أخي عمل بالحزم معضود

عل الجزائر تغدو وهي تخطر في

ثوب قشيب من العلياء مقـــــدود

في هذا تتجلى العلاقة بين الذات الشاعرة والمكان من زاويتين: الأولى الاعتراف الصريح بالموروث من ناحية أنه شكل تعبيري درج عليه الشعراء فكانت علاقتهم بالمكان علاقة بالماضي، المندثر، الفائت، الذي لا قدرة لأحد على عودته من جديد، فهو وقوف على الماضي الذي لن يفيد البكاء ولا النحيب في استرجاع أيامه الخوالي، هو إذن لا يزيد الشاعر إلا حسرة وحزنا على زمن مضى تغيرت بعده ملامح المكان فغدى رسما يورّث الشقا ويدمى القلب ويقلّب المواجع .

أمّا الثانية فتتكاثف التركيبة المعنوية التواصلية إلى درجة التناص ويظهر ذلك عند التمرد الصريح في الوقوف على طلل كما وقف الماضون سواء في شكله التخيلي أو في هيئته الظاهرة ، وقد نعت من يفعل ذلك بالخرد(الشقي) ولا نظن إن بيت أبي نواس يخرج عن هذا الإطار العام في التعامل مع المكان الطلل وإن اختلف الزمان والمكان بين القائلين. الذات الواعية ترفض قاعدة (كان أبي) وتدعو في وعي تام الى قاعدة (ها أنا ذا) لأغير واقعا غير طبيعي من خلال علاقة الوجود في المكان.

أمّا الناحية الثالثة التي نميزها في علاقة الذات مع المكان فهي درجة الحب للوطن أو الوطنية، فالبكاء على الماضي التليد قد لا ينسينا الحاضر الذي يجب أن يكون مجيدا، وهذا الحاضر هو مكان الرفعة للذات الشاعرة هو الوطن حيث أنّ رفعة المكان هي بالضرورة رفعة الإنسان، هذا في ناموس القيم الوطنية.

## 2)المكان وهموم الواقع:

إنّ هموم الوطن، ومعاناة أهله، جراء ما لحق به من مظالم، جعلت المكان الجزائري محل اهتمام الشعراء، فجاءت العلاقة به تعبيرا عن إثبات وجود الذات في المكان الأصل، لأنّ فكرة البقاء وتحقيق الهوية مرتبطة تلقائيا باستقلال الإنسان في المكان.

لذلك كان التطور في الرؤية تبعا للحراك الاجتماعي والفكري،هذا يوافق ما ذهبت إليه مدام دوستايل التي ترى" أنّ الأدب يتغير بتغير المجتمعات."[12] فتبعا لهذه الرؤية الاجتماعية وذلك التطور، تبلور وعي الشاعر الجزائري تجاه المكان، فكانت الرؤية الجديدة للمكان الوطن الذي يحمل دلالات نفسية وشعورية تجاه الحوادث والصراعات،لأنّ الوطن أصبح مسلوبا وأهله غرباء، فانبرى الشعراء منددين بالواقع المفروض،يستعملون كل وسيلة للحفاظ على الارتباط بالمكان.

إن الشاعر الجزائري -كغيره من أبناء الوطن- كان يشعر برزء المستعمر الذي عاث في الأرض فساد، فحرم أهل البلد خيرات وطنهم وصيّرهم عبيدا، هذا الواقع المزري، دفع كثيرا من الشعراء إلى التعبير عن هموم النفس المتألمة من معاناة الوطن بحيث تعدى الإحساس بالانتماء الحيز المكاني الجغرافي، إلى المكان الكيان والهوية،فالذات تحمل الوطن المكان بكل شجونه وهمومه إذ ينتقل معها حتى وإن رحلت عن إطار الحيز الجغرافي، فالوفاء للوطن عنصر مركب لشخصية الذات الشاعرة، وقد نلمس هذه المعاني في قول الشاعر جلواح الذي عبر عن هم النفس بسبب واقع الواقع المعيش، فشعرت النفس بالغربة وآثرت الهجرة، لكن الوطن في القلب:[13]

يا بلادا أعيش فيها غريبا
و أنا من أبنائها الأمـــجاد
ويعيش الغريب فيها عزيزا
وهو يسعى لذلها في البلاد
الوداع: الوداع:يا خير ارض
دفنت في ترابها أجـــدادي

إنّ الغربة في المكان التي يعانيها الشاعر كانت دافعا أساسيا إلى الهجرة الفعلية والرحيل خارج المكان الجغرافي، فالموقف من المكان هو موقف من الصراع الدائر في الواقع، موقف من العلاقات الإنسانية، أمّا الذي يتحمل وزر هذه المعاناة، فهو الآخر الدخيل الذي يسعى إلى إذلال أهل الوطن الشرعيين والتنكيل بهم، لكن هروب الذات إلى مكان إقامة جديد لا يعني البتة التفريط في الأصل، والانفصال عن الوطن الأم، فعلى الرغم من قرار الرحيل الكيان مشدود بالأصل بخير أرض موروثة أبا عن جد، فالغياب فزيائي أما الحضور فأبدي لأنّ المكان يسكن الانسان.

من هنا ارتبط البحث عن المكان بالبحث عن الهوية، فالذات البشرية لا تكتمل داخل حدود ذاتها بل تنبسط خارج هذه الحدود حيث المكان الذي يمكنه أن تتفاعل معه فحدود التفاعل مبنية على الإيمان الكامل بين الذات والمكان الأصل والجذور، لهذا تكون الأنا في أوج الانزعاج والتذمر بسبب الضغوط المسلطة من طرف الآخر، حيث ترغمها على الاغتراب والسفر القصري.

## 3) المكان وشعور الانتماء :

إنّ العلاقة بين الإنسان والمكان تنتج من حيث إنّ للوطن دلالة (سيميائية) يكتسبها المكان، هذه الدلالة تحيلنا إلى علاقات ارتباط الإنسان بالمكان بوصفها تعبير عن انتمائه للمكونات المادية والمعنوية،بل "إنّ عنصر المكان هوشكل من اشكال الوجود، ينتمى إليه ويعتمد عليه"[14].

هذا الانتماء هو أحد أهم مرتكزات تشكيل هوية الإنسان، تتجسد في حزمة من الدلالات مثل: الاطمئنان، الراحة، الحب، الحماية.. وهذا ما يفسر لنا تعاطف الناس مع أوطانهم (الأمكنة) على مستوى الأحداث الداخلية والخارجية كالأحداث السياسية والثقافية والرياضية، هذا الترابط بين الإنسان والمكان يجعل بعد الانتماء مكونا أساسيا لذات الفرد في المكان، ترتبط بها مقومات السلوك، فالمنتمي هو الوطني المخلص المتزن ..أما غير المنتمي فيعيش فراغا ذاتيا يكاد يجعله بلا لب ولا عقل ولا قيمة فهو تائه ضائع القصد.

أمّا أبعاد الانتماء فمتعددة من حيث العلاقة بالمكان، قد تبدأ من القريب وتتوسع إلى البعيد حتى تحدد الذات لنفسها موقعا مريحا تستطيع من خلاله العيش والتعايش.

**ا)البعد الوطني:**

إنّ الاحتفاء بمفهوم المكان لم يبق عند شعراء الجزائر مرتبطا بالشكل التقليدي الموروث كما أسلفنا، لكن انتقل المفهوم ليعبر عن مدلولات أخرى فاكتسب صفة جديدة اتصلت بمفهوم المكان الشامل الذي يدل على الوطن، الأمة، بل الوجود أصلا." فمع إعراض الشعراء عن الوقوف على الأطلال، بالطريقة المعهودة عند أسلافهم، فقد برزت مفاهيم جديدة للمكان تشبث بها الشعراء وصارت في مدلولاتها أماكن بديلة، فهي من ناحية أدبية أكثر مساحة من الحيز، بل هي مفاهيم شاملة له تدل عليها علامات هي في الأصل ليست دالة على المكان في ظاهرها التركيبي كالغربة، السفر، الترحال ...، وتجلى ذلك المفهوم خاصة في شعر الوطن الذي قضى بشكل جلي على المفهوم القديم من الناحية الفنية فالدلالات اختلفت وكان المفهوم القديم صار لا يدل بشكل كاف عما صار عليه الحال في العصر الحديث، حيث أضحى المكان مفردا بصيغة الجمع وأصبح هو الذي يهيج الأشواق لما فيه من ذكريات."[15]

إن الشعور بالانتماء الوطني هو الدافع الأساس في قول محمد العيد الجباري في قصيدة له بعنوان (كيف لا ابكي) نشرها سنة 1934:[16]

كيف لا ابكي دما

وبلادي في عنا

تتنـــــادى ألما

من عذاب وضنا

انا جزء من ثراها

قد تبدى بــــــشرا

فإذا ازداد عنـــــاها

ازداد جسمي ضررا

"إن أماكن الإبداع الشعري لغوية بالضرورة"[17].فلغة التعبير الشعري رسالة ذات دلالات مكثفة، ومن أبرز الدّلالات في رسالة الجباري مفهوم الإنتماء للمكان، فالذات الشاعرة قد بلغت أقصى درجات الألم من السائد في المكان، فوطنه (تتنـــــادى ألما... من عذاب وضنا) لذا كان لواجب الانتماء والروح الوطنية اثر في نفسه لما يكابد اخة له في الوطن من جور وظلم، إذا فروح الانتماء التي يعتبر فيها فلشاعر ابن مكانه وابن مجتمعه، هذي الروح تدفعه إلى د رجة التماهي بين ذاته وتراب الوطن، وفي هذا المعنى إحالة إلى مفهومين :

الأوّل، استعانة الشاعر بحقيقة العقيدة الإسلامية التي تقول كلكم من آدم وآدم من تراب، هذه الحقيقة تعني الامتزاج الكلي بين الذات والمكان، فالذات عضو من المكان والمكان عنصر من الذات، وبالتالي التفاعل والتأثر والتأثير حاصل بين الاثنين نتيجة الالتصاق العضوي بينهما.

أمّا المفهوم الثاني، فيعكس درجة الروح الوطنية والشعور بالانتماء فالذات تعتبر نفسها عنصر وجزء من الوطن وبالتالي جزء من مجتمع الوطن وعضو غير مستقل عن المجموعة التي يدين لها بالولاء إلى درجة المشاركة في الألم والمعاناة، لأنّ أبناء الوطن كالجسد الواحد.

إنّ قوة الانتماء ودرجة الوطنية، قد تتحدد أكثر حينما يتعرض الوطن للخطر وتحدق به الأهوال، ففي هذا الوضع تقاس همة الوطنيين ودرجات ولائهم، هذه المبادئ حملها الشعر الجزائري الحديث فعبر عنها مع بدايات الأحداث المؤلمة المتمثلة في استيلاء الأجنبي على الوطن بحيث كانت رغبة الآخر ونواياه رغبته الواضحة في تغيير معالم المكان، صبغه بصبغة جديدة تتوافق ومزاجه كمسيطر له حق التصرف والتغيير.

هذا ما أثار الشاعر، واستفزه وحزّ في نفسه، مثله مثل غيره من الوطنين الذين آلمهم وأحزنهم الوضع الجديد، فبكو واستبكوا بطريقتهم، فالعين لا تبكي الا عزيزا،هذا العزيز هو الوطن رمز الانتماء والكبرياء، ففقده فقد لمعنى الحياة، وسلبه سلب للحرية وضياعه ضياع للكرامة، والاستيلاء عليه قهر للذات واستيلاء على مقوماتها.

من هؤلاء الشعراء المتأثرين بما حدث رمضان حمود، الذي هيّجه شعور فقد الهوية والمكان فأضحى ذلك عنده سببا كاف للنحيب والعويل فحسب ،يقول:[18]

بكيت ومثلي لا يحق له البكاء على امة مخلوقة للنوازل واني

بكيت عليها رحمة وصبابـــة علـــى ذاك البـــكا غير نـــــــادم

ذرفت عليها ادمعا من نواظري تساهر طول الليل ضوء الكواكب

بكيت عليهم لا أبا لك في البكا طيب يبل الصدر عند المـــصائب

و لم ابك جبنا او مخافة ناطـــــق فلي همة منتامة للـــــــجـــلائل

تمر على المكروه وهي طليقة وتلبس ثوب الصبر عند العـــظائم

ولكنما ابكي نفوسا ضعيفة رأت خدمة الأوطـــان ليس بـــواجـــب

إنّ الصورة التي رسمها رمضان حمود تكاد تغير مدلول البكاء المألوف في النص الشعري العربي القديم حيث عهدنا الشاعر يبكي ويستبكي على المكان فراق الأحبة ومعاناة الهجر، ويكون الشاهد الماثل آثار درست أو ديار عفت .

لكن حمود في وقفته الباكية، تجاوز الذاتي الخاص إلى العام، فبكاؤه هو بكاء الكل(النحن) من يشاركونه المحنة من أبناء الوطن، فقد اقر منذ البداية ان فعله هذا غير مشروع، لكنه فعل(بكيت ومثلي لا يحق له البكا..) ما السبب في ذلك؟ الجواب قد يفهم على ضوء ما قال في عجز البيت، انه سليل (..امة مخلوقة للنوازل ) أي انه من امة يزخر ماضيها بالعزة والكرامة والشرف فمن يتصل بنسلها لا يجوز له أن يجزع ولا أن يبكي أي كانت الصواعق والأهوال، لكن هذه الأمة التي كان لها الصدر أضحى وجودها مهددا، لأنّ الآخر قد استولى على المكان، ومن ثم كان الضياع، والحالة هاته لم تكن لتحدث لولا ضياع الروح الجهادية بسبب الوهن الذي أصاب النفوس التي صارت ترى خدمة الوطن(مكان العزة) ليست واجبة وتلك إشارة مباشرة من الشاعر إلى من فرطوا في المكان تهاونا وضعفا وجبنا وتخاذلا وحتى تآمرا.

وفي نماذج أخرى من الشعر الجزائري الحديث قبل اندلاع الثورة، تدعمت الملامح الجديدة للمكان وترسخت في مخيلة واعتقاد الشاعر حيث ارتبط الانتماء إلى المكان بمفهوم الوطن والوطنية، ومن جراء ذلك تعددت أشكال الولاء وتوثقت في الأساس عند كثير من الشعراء بفكرة الإصلاح، فكان من الوطنية ومن أشكال الولاء

للمكان، أن يقف الشاعر موقف الناصح الواعظ لتكون الغاية من ذلك مكافحة كل أمراض التي تفشت في المجتمع بفعل فاعل كاللامبالاة والتهاون، وانتشار المفاهيم الخاطئة التي أراد الاستعمار وأذنابه زرعها بين الجزائريين لتخديرهم وشغلهم عن أساس الصراع الذي هو في الحقيقة صراع وجود جوهره السيطرة على المكان ومن ثم بسط السيطرة على مقومات الأفراد.

فمن جملة الوسائل التي لجأ إليها المستعمر بث الفرقة بين الجزائريين وإذكاء روح الصراع ،تلك أوضاع حركت قريحة الشاعر عبد الرحمن بن العقون الذي صور غربة الذات في الوطن فإخفاؤه لمعالم المكان في ظاهر النص تكشفها دلالات الانتماء إلى أبناء المكان بحيث يربط ذاته بذات الوطن فيتحدث بصيغة الـــ(نحن) ليعبر عن الانصهار بين الـــ(أنا) والـــ(نحن) من جهة، وبين الذات الجمعية والمكان من جهة أخرى مثلما صورها قديما الشاعر "لقيط بن يعمر الأيادي" في علاقته بقومه إذ أوضح لهم أن هذه الصراعات لا تزيدُهُم إلا غربة في عقر دارهم : [19]

أسمعـــــــوني مَا أنا إلاَّ صَدىً

ردَّدَتـــــه مـــن حَنَاياكـــم عِـــبَرْ

هـــذهِ الأمراضُ في جَـــوْهَـــرهَا

تـــُورثُ الأُمـــَّةَ قَـــــتّالَ الأَثـــرْ

وترينُا الـــــذُّلَّ عــــزًّا قَـــيِّماً

وتُذيقُ الشَّعبَ مَوسُوعَ الضَّـــَرَرْ

جعَلَتْـــنا في حِمــــانا غُرَبـــَاءَ

وأَرَتنَا كـــيفَ تـــَنْهـــارُ الأُسَـــرْ

يدعو الشاعر إلى التآلف، ويحذر من الفرقة والتشتت، وتلك نصيحة بذلها لأهله، حفاظا على كيانهم ،وهي رغبة الذات المنتمية التي تشعر بالخطر المحدق، فتدعو إلى التنبه ومواجهة المخاطر التي تهدد المكان باعتباره رمزالبقاء الشريف. لانّ نتائج الخصام والخلاف ضياع للمكان وذلة أهله.

إنّ استلاب المكان يولد الشعور بالغربة وضياع القصد لأنّ الإحساس بالكيان وبالألفة لا يتأتى إلا عند الشعور .بملكية المكان وخصوصيته تجاه الذات سواء (الأنا ) أو (النحن) لأنهما وجهان لقيمة واحدة، هي استقلال المكان وضمان حرية منتسبيه، ما عدا ذلك تكون الغربة وتكون المعاناة ويكون المسخ ويكون الانقراض، والشاعر مدرك

لهذه الحقائق بل قد عايشها في واقع الآني (جعَلَتْـــنا في حِمانا غُرَبـــَاءَ.....) فالغربة هي غربة نفسية، نتيجة ضياع الأمل في الحياة، وضياع القصد منها بسبب الاستلاب المفروض من قبل المستعمر.

المعنى نفسه نستشفه من نص الشاعر محمد العيد آل خليفة:[20]

وهبتك روحي يا جزائري فامري

كما شئت اني خاضع لك خادم

وقرباك هم قرباي لست مباليا

أعاريب هم في جنسهم أم أعاجم

فخذ من دمي يابن الجزائر إنني

اخ لك في كل الحظوظ مقاسم

إنّ الولاء للمكان دون تحفظ تحمله دعوة الذات الجمعية الوحدوية إلى التحلف بين أبناء الوطن مهما اختلفت أصولهم، وفي ذلك محاولة لقطع الطريق أمام الذين يروّجون إلى فكرة البربر والعرب من اجل شق صفوف الوحدة في المكان الوطن الذي هو الجزائر، وهي الدعوة التي ساهم المستعمر في تغذيتها من مبدأ فرق تكون سيّدا.

فقد أكد الذات المؤمنة بالوطن الواحد الموحد، بأنّ المحافظة على وحدة المكان هي محافظة على وحدة أهله، وهي دلالة على وحدة المصير، بحيث يكون الانتماء للوطن صمام للبقاء، هذا الادراك يبرر تجاوز الذات لكل الاعتبارات، لتؤكد ان الوحدة بين ابناء الوطن وشعورهم بالانتماء إليه هي الأساس في الحفاظ على وجودها وبقائها، يأتي التأكيد على مفاهيم الأخوة في مجالاتها المقدسة في معان تستوحيها الذات من المقدس من الدين، من الواقع الترابط بين افراد الأمة الواحدةذات المصير الواحد المشترك :[21]

وما نحن إلا امة ذات نسبة

سماوية الأسباب لن تتقطع

وذرية للأطلس الفخم لو به

تصدت لنا (ذرية) ما تتصدعا

إذا ما دعافي(توقر)ابن أجابه

(بجرجرة) ابن ليس يخذل من دعا

وحدة المكان إذن، من وحدة الشعب، فابن منطقة الاوراس(توقر) استصرخ، طالبا للنجدة، لن يتوانى ابن جرجرة لنجدته، وهذا يعني ان المكان الجزائري واحد موحد.لأنّ جغرافية المكان وجغرافية الإنسان هي كل متكامل، إذا اشتكى منه جزء تداعى له البقية وهبوا للنجدة. فالذات تكون غائبة الوجود اذا ما نزعت من وسطها الطبيعي وهذا الوسط الطبيعي في الحياة هو المكان الانتماء"فما دام الجسم حيا في هذا الوسط فهو لا يذوب، أمّا إذا نزع من هذا الوسط فيموت"[22] والمقصود من الوسط هنا مكان الانتماء فالذات حية لا تذوب في الوسط الطارئ ما دامت محافظة على تماسكها الأصيل. وهكذا تتخذ جغرافيا المكان دلالات جغرافيا الإنسان، فقد شكل هاجس الوحدة، وحدة الشعب، مطلبا أساسيا لوحدة المكان، لأنّ تقسيم المكان هو انشطار للذات الوطنية وهو سببا في ضعفها ووهنها.

وفي موقف آخر صور شعراء الجزائر الوضع المأساوي الذي آل إليه حال الشعب، من جراء استيلاء المستلب على خيرات البلاد، فكان لهذا اللون من الشعر دلالات وطنية تحدد موقف الشاعر من المكان فالدعوة تحمل معنى الاستنهاض، من خلال كشف الحقائق، أي كشف أساليب المستعمر تصرفاته تجاه الشعب، بل تجاه الوطن برمته المعرض للخراب، وقد كان لمحمد العيد شعر مشهود في هذا الباب منه قوله مواسيا البائسين:[23]

يناغي البائسين كما يناغي

لعمري العندلـــيب العنـــدليبا

ويحيي في رثائهم الليالي

وينهض في مصارعهم الخطيبا

بقلب يلفـــــــــظ الأنفاس حرى

وعين تذرف الدمـــع الصبـــيبا

هذه الصورة المأساوية تشخص وضعا غير طبيعي، عكس حالة استلاب المكان ومدى تأثيره على حال الإنسان لان"أي تغيرات قسرية تلحق بالفضاء المكاني عند الكائنات الإنسانية والحيوانية، من شأنها إحداث تشويش .."[24] في الحياة الطبيعية التي يوفرها المكان في الحالات العادية، فالتأقلم مع شروط المكان راجع إلى الوجود الفطري الذي يصنع فردا بمقومات تألف مكان المهد وتطمئن إليه بخلاف غيره من الأمكنة الغريبة، كما أنّها لا تألف الدخيل المنافس لأنه يشوه العلاقة بالمكان الأليف. إنّ محمد العيد عندما رسم أنين التعساء الذين يتألمون بسبب بطش الآخر المسيطر على

المكان بغير حق،قد أكّد درجة التشويه الذي لحق بأهل المكان؛ إذ التعاسة والحرمان سببهما الدخيل، لأنّ سبب المأساة هو في الأساس اغتصاب الوطن . إذن تعامل النص الشعري الجزائري مع المكان من خلال ربطه المباشر، بين مأساة الشعب، وبين ممارسات المستعمر، فصار التلازم بين المعاناة والاستعمار، وبين العيش الطبيعي واستقلال المكان.

مكان مستلب =معاناة

مكان مستقل= عيش طبيعي

فدلالة المكان في هذه الحالة تعدّت الحيز الترابي والبقعة الجغرافية، ذات الحدود المعلومة، وارتبط المكان بحرية الإنسان وبعيشه وبوجوده الكريم.هذا رسخ قناعة لدى الجزائري مفادها : كلما تمكن الآخر من الأرض كلما داس العرض، واغتربت الذات، وتشوشت العلاقة بين الفرد ومكان الإقامة، بل قد تسود البلبلة وينحرف مفهوم الولاء فتداس قيم الوفاء للمكان وتطغى الروح الانتهازية فتتخلخل البنى الاجتماعية وتفسد العلاقات، وتلك سياسة يعتقد المستلب أنها ناجعة تجنبه مواجهة الأوفياء لقيم المكان.

إذن الدلالات متبادلة بين أن يوحي المكان بمأساة أهلة اوان توحي معاناة إنسان المكان بمصيره، هذه الخصوصية الشعرية تعطي للمكان مفاهيم ودلالات غير متناهية في النص .

لذا نلفي شعراء الجزائر قد التفتوا للظاهرة وحذروا من نتائجها، لأنّ أصحاب النفوس الضعيفة من الخونة والجبناء، قد يتخلون عن المكان ويركبون بساط الغريب ويتبرؤون من القريب، هؤلاء يشكلون خطرا على الوطن وأهله، لأنّهم لا يتوانون في التخلي عن القيم التي تربط الأفراد بمكان مستقرهم، بروح مسؤولة، وبوطنية خالصة تبين التصاق الذاتبالمكان الوطني، يعبر محمد الجباري:[25]

بـــني وطـــني لا تحســـــبوا الناس

ذوي عزة من ساكني السهل والنجد

فكم كنت مغترا بقوم أعدهم حصونا

تقي الشـــعب النـــبيـــل مـــن الضد

فلما اتى اليوم الـــــشديد وهـــ،و له

وجدتهم خـــلو مـــن العـــزم والـــجد

إنّ الذات الشاعر ترفض الخور والعجز، إنّها تواقة إلى البطولة وكل قيم الشجاعة والإقدام، في هذه الثنائية يحدد الشاعر هوية أهل المكان والحري بهم الدفاع عنه، وهم اهل الشجاعة الذين لا يخافون جبروت العدو ولا ينجرون وراء إغراءاته، هؤلاء الوطنيين يوجه لهم الخطاب، ويحذرهم من الفئة المتخاذلة المتقاعسة العميلة، فيبدو أنّ الجابري قد وظف التجربة واستعان بالحكمة: في الوحدة قوة.

فهو على أساسهما تمكن من الفرز والتحديد لمن لهم شرف الدفاع عن المكان ومن لا يعول عليهم، وبالتالي علاقة الإنسان بالمكان تحدد من جراء درجة الشعور بالانتماء إليه. التي تضع الإنسان في ميزان القيم الاجتماعية فعلى ضوئها يصنف الناس وتحدد طبائعهم. إنّ درجة الانتماء قد تصل إلى حالة من غياب الذات الإنسانية التي تتماهى في الذات الوطنية، فتتحلل المشاعر وتنتفي الأعضاء، فيتداخل المكان مع الأنا، فيصبحا نسيجا واحدا موحدا كلاهما يعكس وجه الآخر في تمازج فيزيقي المعالم والتوجهات، فقد قال موسى الأحمدي نويوات في هذا المعنى:[26]

أنـــــا جزء يا بـــلادي من ثـــراك

أنا جزء يا بـــــــــلادي من هواك

ليس في ذا الكون محبوب سواك

أنت كنزي، أنت يا تاج المـــلوك

تكاد تكون هذه الصورة مكررة عند كل وطني جزائري يشعر بقوة الانتماء للوطن الأم، فقد كان هذا الشعور بمثابة الوقود الذي يغذي الذات ويشحنها بالروح المقاومة غير المستسلمة مهما تعددت أساليب المستعمر، فكأن الارتباط بالمكان يدل على مدى القدرة على الصمود والمقاومة.

فالذات قد تكتسب قوتها من جغرافيا المكان بكل تضاريسه المتنوعة."لكن المكان في الإبداع الشعري ..ليس صورة فتوغرافية او شكلا مرسوما هندسيا "[27]وانما جغرافيته تحدد أشكالها تفاعلات الذات مع محيطها في الداخل والخارج.

أما احمد توفيق المدني فيؤكد في نظرة تفاؤلية شدة الارتباط بالمكان يقول سنة 1933:[28]

لسنا بمـــوتى ،إنّما هـــي نـــومة

من بعدها فجر النهوض سيسطع

ونرى البلاد تعيد سالف مـــجدها

ولعصر نوم الخـــــاملين نودع

ابنوا الى المستقبل الزاهي جـــدا

را أسّه في الأرض لا يتزعزع

شيدوا المدارس حرة عـــــربية

بلبانها غذوا البنين وارضعوا

تتجلى نشوة الشاعر التفاؤلية بأمل الخلاص للمكان، المكان الرامز للهوية والانتماء، فتمتزج روح التفاؤل ،بقوة البقاء في المكان من خلال الدعوة إلى تثبيت دعائمه بالوحدة والتعلم والتخطيط للمستقبل، وهي صفات ترغب من خلالها الذات إلى استرجاع توازنها .

**ب) البعد القومي:**

أن المتتبع لحركة الشعر الجزائري الحديث يلاحظ بان هؤلاء الشعراء تربطهم أواصر القومية والدين بوطن وفضاء مكاني أوسع من الوطن الأم بحيث يعتبرونه عضوا مكملا لنظرائه من أقطار الوطن العربي والإسلامي الكبير.

إن الشعور بالانتماء إلى الوطن الواحد والعرق الواحد، ولد عند الشاعر الجزائري، فكرة المصير المشترك بين كل العرب. هذا المعنى نتبيّنه مع رمضان حمود "وهو يخاطب العروبة كلها تاريخا ودينا وأرضا ...يستفز فيها النخوة والأمجاد ..."[29] يقول:[30]

أيها العرب والخطوب جسام

دون هذا العناء مـــوت زؤام

أيها العرب والحوادث جاءت

ممطرات وكأنـــهن غمـــــام

إن يكن للحياة فيكم طـــــموح

فمتى النطق والســـكوت حرام

ناولـــــــوني يدا بـــها أتسامى

إن قلبي لبالـــعلا مســـــــتهام

إن نفسي إلى المـــــكارم تصبو

ولها في سما البيـــــان هيـــــام

يحدد رمضان حمود معالم المكان التي رسمها الشاعر الجزائري في هذه المرحلة الحرجة من التاريخ، فأرضه عربية وقومه بني يعربي، لذا كانت دعوته شاملة في مفهومها، فالنداء عام لكل القوم من أجل النهضة والذود عن الحمى .

إنّ دلالة المكان صاغها الشاعر من خلال توسيع الدعوة إلى الأصل،"لأنّ الفرد يعيش ويحيا ضمن دوائر مكانية صغيرة، فكبيرة، فأكبر"[31]فقد تكون الدائرة الصغيرة هنا هي وطن النشأة، بينما الدائرة الكبيرة هي الوطن القومي، أمّا الدائرة الأكبر فهي الكون وما يمثله بأبعاده اللاّمتناهية.

هذه الأبعاد بالنسبة للشاعر الجزائري، تمثل الجزائر مكان الانتماء الأوّل، أمّا الوطن العربي فهو مكان الانتماء الثاني أو الدائرة الكبيرة، أمّا الكون الفسيح فهو يمثل الانتماء للدائرة الأكبر. فالمكان في هذه الصورة هو ما وعته الذات وتعايشت معه في رحلة الحياة .لأنّ تأثيره له انعكسات على وجودها في واقعها بشتى تنوعاته وعلاقاته الحياتية.

إنّنا نعثر على نماذج كثيرة في الشعر الجزائري الحديث الذي نظم في مرحلة ما قبل الثورة، يعبر عن الانتماء للدائرة الكبيرة، لانّ الشاعر الجزائري – كما اسلفنا سابقا–كان متشبثا بجذوره ملتفنا الى اصله، فكثيرا ما شارك شعراء الجزائر شعوب الوطن العربي أفراحهم وأتراحهم وعبروا عن روح الأخوة وقوة الروابط، وهو ما يعكس وعي الذات العربية وشعورها بالمصير المشترك بين أقطار الوطن العربي،التي تمثل المكان الكبير الذي يحمل كل معاني الذات العربية المنتمية في تشكلها وارتباطاتها بالآخر، سواء العدو أو الصديق، وقد جاء هذا اليقين من خلال التراكمات التاريخية والمعرفية التي وعاها الشاعر الجزائري كغيره من شعراء العرب المحدثين.

هذا المعنى عبر عنه عبد الرشيد مصطفاي في قصيدة له بعنوان "الى الخضراء"(تونس) نشرها سنة 1931منها قوله:[32]

ألا فاهدوا إلى الخضراء دواما

تحيات الجـــــــزائر والسلام

تحيات الريـــــاض إلى رياض

تحمل نـــفحة الزهر النـــــساما

وللأخت الشقيقة شوق أخـــــت

يكاد فؤادها يـــــفني غـــــراما

إن الصورة التي أعطاها الشاعر للمكان تعج بالدلالات العميقة المرتبطة بحقيقة الانتماء القومي وحقيقة المكان الشعري ورموزه، لأن "المكان لا يتوقف حضوره على المستوى الحسي، وإنما يتغلغل عميقا في الكائن الإنساني، حافرا

مسارات وأخاديد غائرة في مستويات الذات المختلفة، ليصبح جزءا صميميا منها.وذلك لأنّ المكان هو الفسحة /الحيز الذي يحتضن عمليات التفاعل بين الأنا والعالم"[33]. فتونس المكان الجار بالنسبة للجزائر، لها روابط أخرى تتعدى المستوى الحسي والتصوري للجغرافيا إلى الروابط العرق والدم والعقيدة، وما هذه الصورة إلا أخدودا غائرا في نفسية الذات الشاعرة، المقتنعة بوحدة المكان وان اختلفت التسمية شأنها ذلك شأن اخوين شقيقين يربطهما أصل واحد وان حمل كل منهما اسم غير اسم شقيقه، هذه هي حال الولاء للمكان الكبير الذي يتصف به الشاعر الجزائري.

فالمكان القومي هو رمز الانتماء الذي يشكل للذات تكاملها بل يشعرها بروابطها الأخرى التي تحقق بها جزء من توازنها.

وفي معنى آخر مشابه يقول الشاعر الربيع بوشامة فرحا مبتهجا باستقلال الشعب الليبي الشقيق :[34]

يابن الجزائر هذي ليبيا فديـــــتك
من العذاب ونالت خـــــير اوطـــار
لا شيئا غلى من التحرير يكـــــسبه
مجـــــــاهد بعد آلام وأخـــــــطار
فـــك البلاد وفـــــادى مـــــجد أمته
من عيشة الذل بين السيـــــف والنار
وبات في عرش المحروس محـــترما
يزهو بمـــــفرقه تـــــــاج من الغار

النص كما يبوح بأسراره تهليل وبشرى باستقلال أرض ليبيا باعتبارها جزء من الانتماء العربي، لكن في الوقت نفسه يغتنم المناسبة ليحث ابن وطنه ليحذو حذو الشقيقة ليبيا حتى يحرر الأرض، إذ الأرض العربية واحدة بحكم المقومات المشتركة بين أبنائها . قد ننعت هذه الافكار الانتمائية بقومية المكان، وتعدي حدود القطرية.هذا شعور آخر بالمكان الأرحب في ضوء الشعور بالانتماء الحضاري والتاريخي والقومي، فالرؤية للمكان تتكشف من جراء العلاقة بين الذات وجغرافيا الانتماء، فأقطار الوطن العربي تتخذ رمز التكامل فيما بينها على أساس أنها وطن واحد، لمواطن واحد، فهذا شكل من أشكال التكامل المنشود والذي ترغب الذات الشاعرة في تحقيقة عبر حرصها على دائرة انتمائها.

إن الشاعر الجزائر دائم التفاعل بأحداث الوطن العربي، باعتباره وطن الانتماء القومي، فهو دائم الاتصال بمكانه الكبير، محتفلا دائما بكل انجازاته. حيث تلتمس الذات شعاع الحرية في كل شبر من الوطن الكبير. هكذا تتأثر الذات

القومية، وتنفعل مع كل حدث يمثل لها الاتصال المباشر مع المكان الأرحب، فاستقلال السودان، ورجوع مصير أهله بين ايديهم، يستفز كل قومي، كل تواق للحرية، لأن النموذج الأصلي لمكان الذات هو الذي تمارس فيه حياها بحرية دون ظغط الاجنبي الدخيل. يقول محمد العيد مهنئا السوادان باستقلاله:

فوز سرت بحديثه الركبان

فالشرق مغتبط به جــــذلان

وبنو العروبة يهتفون لمركب

في النيل أبحر ركـــــبه العربان

والنيل يجري صاخبا ومصفقا

طربا فترقص حوله الشــــطآن

فمعنى الانتماء يبوح به النص بحيث يعتبر استقلال أرض السودان مدعاة للفرح والبهجة لكل العرب، فقومية الانتماء ظاهرة بشكل جلي انتماء للقوم والوطن، وبالتالي فدلالة المكان هي دلالة الذات المنتمية، ذات هوية معلومة معروفة، فهي تستمد عظمتها من عظمة انتمائها. هذا ما نلحظه مرة اخرى في معاني الانتماء للمكان بتاريخه وأمجاده في قول الشاعر جلواح:[35]

اجل ما بنى قوم على أرض مثلما

بنت سالفا راحات آبــــــائي الشمس

لقد كان هذا الشرق عرشا لمـــلكنا

كما كانذلك الغرب من تحتنا كرسي

نثور فتجثو النائـــــبات حـــــيالنا

ونرضى فيمسي الكون والدهر في عرس

هذه النبرة الخطابية التي لا تخلو من مبالغة في الفخر، كما عرفها شعر القدامى، لكنها تدل في الأساس على موقع الذات من الأصل القومي، والعقائدي معا، فهي تحاول ان تجعل المكان بأهله شاهدا في فصوله التاريخية على صولات وجولات السلف، فالذات الشاعرة تقف في عليّة، والخطاب في الأصل موجه للآخر، لان الخطاب بهذه الصفة هو بمثابة رد فعل على التحولات التي يعيشها الشاعر في خضم الصراع الذي طرأ في المكان.

هكذا يتضح ان النص الشعري الجزائري احتفل بالمكان القومي وتفاعل مع مختلف احداثه، في فترة حرجة من تاريخه، ليعطي دلالة الانتماء بشكل تتصل فيه الذات بكيانها الكبير ليتحقق لها الاتزان، ولتكتسب الحصانة ضد من

يروج إلى فصلها عن أصولها وامتدادها القومي، فالمكان الجغرافي يتمظهر من خلاله الحس القومي الوحدوي الرافض لتجزئة جسد المكان.

**ج) البعد العقائدي:**

يتشظى المكان في معتقد الشاعر الجزائري إلى ابعد من حدود الجغرافيا المحددة لفكرة القطر، ابعد ايضا من الانتماء القومي، فمكان الشعر الجزائري مكان عقائدي مقدس، قد يختصر كل الأمكنة الأخرى، لأنه متصل بالروح وبالعقيدة التي يعتبرها الجزائري أهم مقوم وأقوى حافز للحفاظ على الوجود المتميز عن الآخر، لأنّ تعاليم العقيدة الإسلامية تختصر كل مقومات الشخصية وتربطها بالذات الخالقة، المنزهة عن الظلم والداعية للعدالة والمساواة. فقد استوحى الانسان الجزائري المسلم من عقيدته مفهوم الجهاد والتضحية وقيم الدفاع عن الحق وعن المكان، فحب الوطن والدفاع عنه من ركائز الإيمان، هذا ما جعل الشاعر الجزائري يتفاعل مع حوادث الإسلام ويستجيب لمناسباته، ويحث على الاتصاف بأخلاقه وتبجيل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال محمد العيد :[36]

بـــني الإســـلام أحـــيوا الـــدين شعا ئره وأوفوا بالعقود

فـــديـــن مـــحمد ديـــن الـــترقي ومجد محمّد مجد الخلود

هي دعوة مباشرة إلى كل من يعتنقون عقيدة الإسلام مضمونها هو لا حياة لكم ولا بقاء إلا بإحياء مبادئ الإسلام، وهي دعوة في أساسها صادرة من واقع المكان من الجزائر التي رماها المستعمر في مقتل،حينما استهدف ديتها ولغة دينها، ذاك سبب جعل الشاعر الجزائري يصرخ مستنجدا بمبادئ العقيدة باعتبارها ضمان البقاء الإنسان المسلم في المكان. فإن كانت الغاية مصدرها عقائدي، لكن دلالاتها مكانية، هي الاستحواذ على المكان والقصد واضح هو التمكين للعقيدة.لكن كلا النتيجتين تكمل الأخرى فالعلاقة وجودية بين المسلم والمكان.

إنّ الذات الشاعرة مرتبطة روحيا بالبقاع المقدسة، فالقلب يهفو إليها في كل مناسبة، والسبب هو الشعور بالانتماء الى عقيدة صحيحة بها تتشبع الروح وتحارب كل جدب وخواء، هذا الإيمان بقدسية المكان يوطد العلاقة بالمكان المقدس الذي بالنسبة للمسلم هو مهبط وحي العقيدة ومنشأ رسولها صلى الله عليه وسلم. لهذا يعد موسم الحج أبرز مناسبة تشد اليها الرحال وتهفو اليها الأفئدة، لأنّ الانتقال إلى المكان المقدس واجب شرعي تفرضه العقيدة باعتبار الزيارة ركن من أركان الإسلام، وهي الفرصة قال فيها محمد الأخضر السائحي سنة 1952:[37]

حي الوفاء وحي الحزم والهمم حي الوفود التي قد حجت الحرما

إنّ الحرم ليس موضعا أو مكانا ارتسمت معالمه على خارطة جغرافية، إنّه المكان المقدس الذي تشد إليه الرحال تعبيرا عن الوفاء والإيمان، هو الموضع والمكان الحاضر في الذهن والمرتبط بمكان متعين في الأذهان، مختلف عن غيره من الأماكن يتميز بثراء دلالي وروحي، ففي المعنى الشعري يربط محمد الأخضر السائحي بين بمكان الجغرافيا ومكان

الروح، أي أنّ العيش للوطن ومن اجله، مستلهمة معانيه من معطيات الإيمان التي يمثلها الحرم كمكان نفسي، وجبت التضحية بالنفس والنفيس إن دنسه معتد،

لان الموت في سبيله شهادة، هذه المعاني لها دلالات اسقاطية على المكان ألام أو الوطن بحيث لا حياة للناس الشرفاء إلا بامتلاك زمامه، معنى ذلك، هو أنّ قدسية الحياة هي نفسها قدسية المكان لما يمثله من معاني للذات المستوطنة.

ثمة صور أخرى احتفى فيها الشاعر الجزائري بالمكان المقدس مؤصلا العلاقة بين المكان الوطن والمكان الروحي العقائدي من خلال تأكيده على أنّ لا خير في مكان فقد فيه الدين وشوهت تعاليمه، كما حدث في الجزائر بعد أن دخلها المستعمر،ففي هذا المعنى يقول الشيخ احمد سحنون:[38] فلا خير في الدنيا إذ هي أقفرت من الدين والأخلاق وانتشر الكفر

إنّ أصالة الشاعر الجزائري تتكشف من خلال النص الشعري بكل حمولته الدلالية، غير أننا نلفي الارتباط بالجذور الوطنية والقومية والعقائدية يختزلها التوحد مع المكان في كل حالة من أحوال الانتماء والوجود. فتعاليم الدين والالتزام بالأخلاق الفاضلة، هي في حقيقتها وسيلة من وسائل الحفاظ على التماسك الاجتماعي، ومن ثمة هي حفاظ على الوجود في المكان، حيث إذا ضاعت أواصر التكافل التي دعت لها العقيدة، وآمن بها الشاعر الجزائري المسلم، ضاع الوجود برمته وضاع المكان تبعا لذلك، بهذا يمكن أن نتصور الدلالة في التوظيف للعقيدة وعلاقتها بالمكان في النص الشعري الجزائري الحديث في مرحلة الكفاح السلمي. إذن لقد اكتسب مفهوم المكان المقدس دلالة دينية وظفها الشعراء لتكون وسيلة من وسائل المقاومة ضد كل تغريب وتشويه لحقيقة تاريخ الجزائري العربي المسلم. إنّ تناول المكان المقدس يتداخل الزمان والمكان من خلال النص الشعري حيث تحيل المكان إلى زمان، والزمان إلى مكان، "فلا ترى الأشياء ومحيطها ومواضعها إلا في سياق التبدل والتحول، مثلما لا نرى التبدل والتحول والصيرورة إلا مشهوداً في الأحداث... ومُدللاً عليه بالمكان والمواضع والأشياء...."[39]. فالمكان المقدس يحمل في طياته تاريخ المكان الوطن وعلاقته بالزمن الحاضر، فعلى ضوء التاريخ اكتسب المكان قدسيته، لأن الرجوع في الزمن يحيلنا إلى أسباب قدسية التي اكتسبها من شريعة الله ودينه، فالمكان المقدس لا يكتسب في الشعر وجودا طبيعيا فحسب، بل يتحول إلى وجود ثقافي واجتماعي يحمل معان ودلالات كثيرة تمتح عن عمق الوجدان الإسلامي والعربي، فهو بمثابة الخزانة الوجدانية الغنية بالدلالات،التي لا تقف عند الذات الفردية بل تتجاوزها إلى الجماعة والمكان إلى التاريخ والأرض والسماء.

## 3) أماكن أخرى

إنّ دلالات المكان عند الشاعر الجزائري تنوعت من حيث الاستعمال والتوظيف، وكان مصدر التفاعل بالمكان كل ما يحيط بالشاعر، الذي لم يدخر جهدا في رسم معالم الذات من خلال توظيف المكان بكل تجلياته

واسقاطاتة على واقع النفس ومجالات المحيط، فالطبيعة بأشكالها المختلفة تمثل إغراء لأي شاعر رغب الاستئناس بمظاهرها، فتمنحه اللغة الشعرية، وتعيره الدلالة الرمزية، فيخاطبها معجبا، مستغربا، مناجيا، متسائلا عن واقع الحال والمقال. إذن كيف تعامل الشاعر الجزائري مع الطبيعة كمكان متنوع التضاريس في جغرافيا الوطن ؟

**أ)الطبيعة وشعرية المكان:**

إننا لا نزعم في هذا المجال أنّ الشاعر الجزائري سباق في هذا الباب، لأنّ غرض وصف الطبيعة قد أبدع فيه شعراء العربية القدامى مشرقا ومغربا. لكن الصورة الأخرى المغايرة التي لجأ إليها الشعراء في العصر الحديث، الكامنة في خصوصية تصوير المكان الذي اقترب من المعادل الموضوعي، هي التي جسدت العلاقة الجديدة بين الشاعر وبين فضائه المكاني.

فقد ارتبط المفهوم بحسب الحالة النفسية للشاعر وطبيعة الوضع الحياتي، فقد تبدو الصورة في ظاهرها نتيجة الإعجاب تدفعه مسرة، وأحيانا أخرى تكون بسبب المعاناة والهجر، لكن الهم الأساسي الذي طغى على المعنى في النص الشعري الجزائري الحديث، هو الهم الوطني،لأننا كلما أمعنا النظر وأطلنا الرؤية، وتأملنا الفكرة، نلفي لا الوصف ولا الإعجاب، ولا حب الطبيعة والنزهة،هو الدافع الأساس،لأنّ واقع الذات الشاعرة في هذه المرحلة الحرجة من تاريخها، لم تكن مستقرة هنيئة حتى تتوقف عند المعاني السالفة.

إنما هموم النفس التي يحركها أرق الوطن وشجونه ووحشة الذات في مكانها، هي المبرر الرئيس، والداعي الأهم، في اللجوء إلى مظاهر الطبيعة، لأنها جزء مهم من المكان تنعكس في مظاهره تقلبات النفس وانفعالاتها، فطالما استأنس لها الشعراء ووظفوا تجلياتها واستنجدوا بصورها.

فقد تبدو للوهلة أولى صورة المكان مرتبطة بالوصف والإعجاب، لكن سرعان ما يتنبأ الدارس بعمق الحقيقة الطبيعية المتصلة بشكل أو بآخر بمظاهر المقاومة والانتماء، فالشاعر الجزائري عبر عن بيئته المكانية واعتز بمظاهرها الطبيعية،واكسب تلك المعاني شعرية وخصوصية طبيعية لها من المشاهد والمعاني حمولة دلالية كثيفة، كما في وصف احمد الطيب معاش لسحر النخيل:[40]

نخل أطل على العباد بســـحره
فاستلهمت أسراره الأشـــــعار
يزهو بعرجون تـــدلى تـــــبره
مثل الثّريا حولـــــــــــها أقمار
أين الثريا من ثمـــــــــاريخ به
هامت بها الألبـــاب والأبصار

في هذه الصورة الطبيعية الخلابة للمكان الجزائري لا يتوقف المعنى عند جمال النخيل في زينة الطبيعة، وإنّما الدلالة هي مدى الارتباط بالمكان والاعتزاز بمظاهره، لأنّه رمز الوجود ودليل الأصالة، والنخيل في كل الأحوال يحمل معنى الصبر والبقاء وهو رمز الشرق بميراثه الحضاري، فصبر النخيل من صبري الجزائري وشموخ النخلة من شموخه، وثمارها الطيب من أخلاقه وأعماله وبساقتها من كبريائه.وهي صفات حركها واقع الجزائر في تلك الفترة من التاريخ.

إنّ تفاعل الشاعر الجزائري الحديث مع المكان الطبيعي نلمسه في في نصوص شعرية كثيرة، عبرت عن مدى تأثر الشاعر وتفاعله مع الحيز بكل أبعاده، فقد نفث فيه من شعره هواجس الروح فدبت فيه الحياة وتجلى المكان بسحره وجماله ونعومته وعنفوانه كما بدى المكان في صورة أخرى بعنفه وقسوته وصلابته، فاحدث الشاعر في تعامله مع هذه الأمكنة كثيرا من الانزياح المشبع بالدلالات بعديد الرموز والمحملة بشحنات إيحائية تعبر كيانه ومآل مكانه .

إنّ الشاعر عادة مولع بالتعامل مع المكان الحي، المكان الحركي لأنه يرفض كل سكونية، فعناصر الشعر المكونة لبنيته تتمتع بكل مواصفات الحركة والسّمات الحركية، لهذا نلفي الشاعر الواعي بطبيعة المكان يفعل فيه فعلا تفجيريا خلاقا. وهذه الصفات قد توفرت في النص الشعري الجزائري الذي اتسم فيه واقع الحال بالحركة، من جراء الصّدام بين الأنا والأخر.

وما دامت الطبيعة تكتسب دلالات نفسية وتمثل رموزا إنسانية وتتحرك جزئياتها مع حركة الذات وتخضع لأوامرها.كانت معادلا موضوعيا صب فيه الشاعر نوازع النفس وكوامنها.

هذا مانعثر على تجلياته في شعر الطبيعة كمكان للحركة وللحياة، تعرض لها شعراء الجزائر واتخذوا من مظاهرها عناوين مختلفة لواقع حياتي عكر صفوه الدخيل، فافسد عذرية الحياة، ومن ثم شوه صور الطبيعة.

إن الشاعر الجزائري في تفاعله مع مشاهد الطبيعة، لم يتخل عن الهاجس الأساسي الذي يؤرقه ،وهو الشعور بفقد المكان، لذا كان المكان على طبيعته رمزا للذكريات وعلامة دالة على حوادث التاريخ وملابساته.

لقد اتجه الشاعر لصور شتى في محيطه الطبيعي، فكان للبحر نصيب لما يميزه من حركة هائلة ومهولة، كما توجّه للصحراء وما تنتجه من معاني القوة والتجلد، كما وصف للجبال وما فيها من شموخ وقوة والصمود، بل وفي أحيان أخرى يصنع من لا شيء شيئا رافضا بذلك السكون والخمول . وهكذا تجتمع طبيعة الشعر ووعي الشاعر ليتحدا فيكونا من اللاشيء شيئا يرتع في عالم الجمال.

نعي به جمال المكان حينما يحدث التزاوج بين الحسي وبين المختفي الكامن في أغوار النفس البشرية.

لقد كان لشعراء الجزائر من تلك المواقف والمعاني نصيب دلت عليه النماذج الشعرية الموثقة في إنتاجهم.

فالصحراء ملهمة شعراء العرب ومصدر إبداعهم لم تغب عن خيال الشاعر الجزائري الحديث، لكن ليس بالمفهوم الطلل البالي وإنما بصورة مكانية أخرى، عبر عن بعض مظاهرها الشيخ احمد سحنون الذي انشد قائلا في الصحراء[41]:

أصحراء أنت الكون بل أنت اكـــبر

ومران في عيني أبـــــهى وابـــهر

بلى أنت دنيا لا تـــحد على الـــمدى

إذا كانت الدنيا تـــــحد وتـــــحصر

بلى أنت الدنيا من هـــــناء وغبطة

وصـــــفو عـــلى الأيـــــام لا يتكدر

بلى أنت الدنيا الوحي والشعر والحجى

فـــــقلبي نشوان بحـــــبك يـــــطفر

تبدو لغة المناجاة للفضاء الصحراوي متناغمة مع صورة الانبهار النفسي، فالشيخ احمد سحنون أضفى هالة من المعاني على امتداد المكان إلى درجة جعله أفقا غير متناه، فهو بهذا يقترب من الرؤية الصوفية التي تعطي للمكان أبعادا غير متناهية وغير مدركة حسيا على أساس انه المكان المقدس والمكان الذي يتجلى فقط من وراء المفاهيم الروحية.

إنّ دلالة المكان توحي بالانتماء القومي العربي، وهذا الاخير ابن الصحراء إذن فلصحراء دلالة قومية، كما ترمز الصحراء إلى المكان الأكبر غير المتناهي الذي يشكل انتماء للكون الفسيح، كما يؤدي إلى تشعبات النفس البشرية غير المحدودة، فصحراء الشاعر لا تحد على مدى.

كما يتجلى في الصحراء المكان المقدس بكل تفاصيل العقيدة والدين حينما يقول الشاعر نفسه:[42]

وفي أرضها شب الرسول محمد

وفي افقها انبث الهدى يتفـــــجر

إنّ البادية او الصحراء تكتسب في خيال الشاعر الجزائري معطيات ودلالات روحية متصلة خاصة بالعقيدة لأنّها شهدت فجر الدعوة الاسلامية، هذا معناه أنّ المفهوم الصحراوي له دلالاته روحية وعقائدية ترفعه من مجرد فضاء جغرافيا إلى صورة وجودية مرتبطة وممتدة في كيان الإنسان الجزائري.

إنّها المكان الذي له صفة الامتداد في مخيلة الشاعر يتجاوز بها الحدود الخارجية، فصحراء الجزائر هي امتداد لبادية العرب وما تحمله من إرث تاريخي مرتبط بوجود الإنسان العربي، وبجذوره وعقيدته.

لكن الشاعر الجزائري ابن الصحراء،وظفها كمعادل موضوعي،من حيث أنّها رمز البقاء السرمدي،والجزائري طبعت صفاته وتناسبت وطبيعته مع الصحراء المكان.

كما دل عن أصالة المكان حينما أسنده إلى العقيدة والتاريخ، وهي طبعا رسالة مشفرة إلى المحتل،فحواها هو استحالة امتلاك المكان والسيطرة على أهله لأنّ التجربة التاريخية هي في صالح الجزائري المواطن المسلم المحصن ضد كل احتواء، لأن هذا المكان مع إنسانه يحمل في طياته بذور بقائه.

إن طبيعة جغرافيا الجزائر، متنوعة التضاريس، فكما هي صحراء شاسعة ممتدة، هي أيضا سواحل وتلال وتضاريس جبلية، وهذا التنوع في تضاري الجغرافيا انعكس على تضاريس الانسانمن حيث تأثره بالمكان.

فالشاعر كما انه ابن الصحراء، إنه ايضا ابن الساحل البحري بل جار البحر لذا نلفي احمد سحنون نفسه الذي أعطى أبعادا ومدلولات للصحراء، يتغنى بالبحر ويناجيه،ويصب نقمته على مفارقات الحياة العجيبة فيقول :[43]

ماذا بنفسك قد ألم يا أيها البحر الخضم

نام الخلائق كلهم وبقيت وحدك لم تنم

فالكون في صمت عميق غير صوتك فهو لم ..

والجو مؤتلق وفي جنباته البدر ابتســـــــــــم

استهل الشاعر خطابه بأسلوب الاستفهام الذي ينبأ عن العلاقة مباشرة بينه وبين المكان، وكأن الشيخ سحنون جاء معاتبا، مشاركا ومواسيا، والدلالة في كل ذلك هي تعبيره عن حالة نفسية قد يكون مظهر البحر صورة وشبيه لها، لذا بث على إثرها من نفسه مشاعر وأحاسيس تسربت للمكان الماثل أمامه، فكان الاستفهام الذي غرضه الشعور بالاستغراب والتعجب من حالة استثنائية، تكاد تكون في البيتين الأخيرين أكثر فلسفة في الخطاب .

فهو من ناحية يستعمل الإيجاز بالحذف (غير أن صوتك فهو لم.....) يتضمن العتاب والاستغراب كما حدث في البداية، لكن الصورة المناقضة في مفهوم البيت الأخير تجعل الثنائية( بين معنى البيت ما قبل الأخير ومعنى البيت الأخير..حيرة واستغراب= اطمئنان وهدوء) التي تحدث الاضطراب في المعنى من ناحية، ومن زاوية مقابلة تبدي لاستقرار في نفسية القائل من خلال علاقته بالمكان.

هذا القلق النفسي والاضطراب في الانفعالات لها ما يبرها واقعيا،فالذات لا تعيش ظرفا طبيعيا بسبب إحساسها باستلاب المكان، لذلك اتخذت من البحر ملجأ لعلها تعثر على التعويض.

مرة أخرى يتجه الشاعر للبحر من هو معادلا موضوعيا، فيخاطبه معاتبا، ومتألما من وطأة الاحتلال، معبرا عن نزعة وطنية ساءها وآلمها ما فعل الأجنبي بمقومات الشعب، يقول :[44]

يا بحر ما هذه الشكاة ألست توصف بالعظيم

أتضج من عبث السياسة كم ابد وكم ظـــــلم

أتضج من حر يهان ومن وضـــيع يحـــترم

كم قد طويت من القرون وكم محوت من الأمم

إنّ الذات المتألمة تتخذ من البحر المكان رمزا لمعاناة الوطن، فعظمة الوطن وكبرياء أهله المعهود لم يشفعا له من عبث سياسة الدخيل، فمن مظاهر هوان المكان إهانة أهله الأحرار من قبل أذناب المستعمر، إنّها أحوال تظهر في كل زمان ومكان غير طبيعي، والمكان الجزائري برمته يعيش وضعا غير طبيعي تحت الاحتلال .

فالبحر رمز البقاء الأبدي شبيه ببقاء الإنسان الجزائري في المكان الذي شهد حوادث التاريخ وتعرض لأهوال الزمن، لكنه بقي متواصلا بتواصل أجياله، وهذه اشارة تفاؤلية عبر من خلالها الذات الشاعرة على أمل الحياة الجديدة المتجددة، الأكثر عدلا في المكان الأصل.كما أنّ رؤية البحر المكان بكل تجلياته تتخذ أيضا معنى له دلالات متصلة بواقع الحال وتعادل موضوعيا وقائع الحياة كما يحياها الشاعر ومن يشترون واياه في التأثير السلبي والمحبط، فتلجا الى الى الطبيعة علها تغير واقع الحال لأنها متنفس فسيحة ارجاؤه وتحتفظ بكل الأسرارها التي تستعصي أن يحيط بها بشر.

يقول محمد العيد آل خليفة مناجيا البحر:[45]

يا أبيض العرض جَرّت لك الشواطئ وزرا

أخشى غدا فيك تغدو ازبادك البيض حمرا

أخشى وغًى فيك تَحمى فتقلِب الماء جمرا

ويل لمن جاز حدا أو من تقدّم شبـــــــرا

فكل من رام حربا فإنما رام خسرا

أبيض الوجه إفريقيا نالت بك فخـــــــرا

نالت بفضلك خيرا من الجزيرة وَفـــــــرا

فكم من العُرب غازٍ لها تخطّاك جســـــرا

فقام بالدين فيها وبالفضيلة نشـــــــــرا

وقائد فيك حرٍّ ساق الأعاجم أســـــرى

إن ما يحيلنا إليه الشاعر هو المكان، أو بالأحرى البحر المكان بكل دلالاته وإيحاءاته ورمزيته ووظائفه وبنياته المفهومية. إنه يحيلنا على ما يحمل من معاني تثير النفس أو تثير ما فيها من أحاسيس، وتحرك الوجدان الذي يفرز ما عنده من شعور واللاّ شعور، وتغني الفكر، وتمتع العقل، وتروح عن الفؤاد، وفي إطار ما يزخر به ذلك المكان

من دلالات تبني أفقا شعريا ينبعث الجمال من تراسيمه، وتحيل عليه أيضا في إطار ما يكنه من وظائف من أجلها كان هذا المكان مختارا في هذه اللحظة عند الشاعر.

فالبحر يمثل دلالة الفتوحات الإسلامية التي وصلت اوروبا، (العزة، الرفعة، الفخر ..) والبحر يحمل ذكرى أخرى مناقضة وهي غزو المكان الوطن، ودخول المستعمر(الذلة ،فقد الحرية، الإهانة ...)هذه الدلالات التي يحملها البحر جعلت الذات تتصل بالبحر في حذر معنوي لتناقض الذكرى والرمزية.

ويمكن ان نتصور تلك المعاني كما يلي :

المكان

| صورة الآخر | صورة الذات |
|---|---|
| حربا | فخرا |
| خسرا | خيرا |
| غاز | وفرا |

وفي دلالة إضافية يكون البحر رمز الوطن من خلال انتسابه اليه:[46]

وقفت على بحر الجزائر ليلة

وناجيته لو كان يسمعني البحر

فقلت له:يا بـــــحر مالك هائج

على البر مغتاظا و لم يذنب البر

في النص اسقاط واقع المكان على واقع الحال، فالبحر هائج منفعل مغتاظ، يجسد صورة المستعمر المركبة من انفعالات عنيفة ذات سلوك تدميري تجاه الجزائر وشعبها المسالم الذي لم يقترف ذنبا، يعامل بذاك الشكل العنيف.إذن هي مشاعر الذات المتألمة من سلوك الأخر الذي يريد تدميرها من خلال سلب المكان، وتغيير معالم الحياة فيه .

أمّا الجبال بكل ما تحمله من معني البقاء والقوة والصلابة وظفها النص الشعري الجزائري لتخدم حاجة في نفسه، يقول محمد العيد آل خليفة:[47]

نحن الجبال، بنو الجبال

صدا الجبال بنـــا حدا

من سامنا بـــــــــــإذائه

فعلى الجبال قد اعتـــدى

ومن استهان بنا استهـــ

ـــان بهافحل به الـــردى

كما كان للتفاخر بالمكان وتعداد مآثره، دلالات تنبئ بعلاقة الوجود الفعلي للذات الرافضة للواقع المفروض، لهذا كان وصف المدينة من صميم إثبات الوجود سواء بالرجوع إلى الأصل المتجذر في التاريخ أو من هالة الصفات التي أضفاها الشاعر على المنظر الطبيعي للمكان، يقول الطيب معاشي في بسكرة عام 1953:[48]

بلدة قد ملكت من غرامي أكثره

زانها فتح مبين فأحبت معشره

عقبة خيم فيها قاد منها عسكره

هذه الأركان كانت للجدود مفخره

نخلها يذكر مجدا قد وجدنا اثره

هذه حال الذات التي هامت عشقا بالمكان الذي يحمل كل معاني تعاليه المدركة لحقيقة وجودها وبالتالي فدلالة المكان اكتسبت في هذا المعنى روح البقاء وثبات الأصل، وكأننا بالشاعر يوجه خطابا مشفرا للآخر اي انّ شواهد المكان وارتباطاته التاريخية برهان على الجزائري هو الأصل والدخيل دخيل.

## 3)المكان وصوّر الصراع :

لم يدخر الجزائري وسيلة في صراعه مع الآخر، لذا تعددت أشكال المقاومة في الذود عن الكيان،وحماية الوطن. فقد تنوعت الوسائل بين السلاح والسياسة والقلم، لكن الذي يهمنا في هذا المقام هو موقف الشاعر ووسائله التي اشرنا إلى بعض مظاهرها سابقا ونسعى إلى استكمال مظاهر أخرى تبدو لنا مهمة في علاقته بالمكان وصراعه مع الآخر الغازي، فإذا كان الدفاع عن المكان يتطلب استعمال كل الوسائل من اجل تحريره ودحر المستدمر، هي واجب مقدس، فقد اعتبر الشاعر الجزائري المكان في حد ذاته جزء من المقاومة لان قيمته تكمن في رمزيته وفي الدور الذي يؤديه .

يعد المكان في أصله الأدبي ليس إطارا جامدا، بل هو كيان مشاركا وهو جزء من التجربة الإبداعية لذلك صار توظيفه عند الشاعر الجزائري توظيفا يمتد إلى أكثر من المساحة الجغرافية المشكلة له ماديا، ومن ثم اتخذ المسجد والمدرسة وغيرهما من أماكن العلم والعبادة وسائل كفيلة بالمقاومة، وهذه رؤيا شعرية تجسد العلاقة بين الشاعر وطبيعة المكان المدافع والمكان المدافع عنه، وقد بدا لنا أن المسجد والمدرسة من أهم الأماكن التي استعان بها الشعراء الجزائريون فبنوها بناء المهندسين الحرفيين، ليس من ناحية الشكل الهندسي وإنما من الناحية الدور الذي تجلت فيه كل أشكال القدسية والجلال .

**ا)المسجد:**

يمثل المسجد إرثا تاريخيا في مخيال المسلمين ،فرسالة الإسلام اتخذت منه المنطلق في التنظيم ومن ثم الدفاع عن الدين بل الدفاع عن وجود وبقاء العقيدة برمتها، لهذا يعد تشييد أماكن العبادة وسيلة مهمة لما تحمله من دلالات عقائدية وتاريخية في التعبير عن الهوية ومحاربة مستهدف المكان وأهله ،فالمكان" لم يكن مجرد حيز يعيش بداخله، بل نظر إليه من خلال فضاء تتعدد وظائفه ومعانيه بالنسبة له وللآخرين، بحيث غدا له فلسفة خاصة تجاهه"[49]

فقد رأى الشيخ أحمد سحنون في بناء المساجد وسيلة مهمة في القضاء على التخلف لما تبثه من أفكار في الدين والاصلاح والمجتمع تحمل معاني المقاومة وتقف في وجه ثقافة الآخر، وتبني جسور الترابط بين افراد المجتمع الواحد والهدف غلق باب الاندماج في وجه الاجنبي الغازي، فبناء الجوامع هو في حد ذاته مناسبة مهمة تساهم في المقاومة وتؤكد على البقاء، فهي إيذانا ببزوغ فجر جديد، فقد خلدها الشعراء في نصوصهم، ومن ذلك مناسبة إتمام بناء مسجد"الأمة"سنة 1949[50]الذي نظم في شأنه محمد العيد المناسبة:"[51]

غازلي يا جارة البـــــحر العباب
وابسمي فالحزن عن مغناك غابا
واهتفي إنّ دجى الليل انــــجلى
وشعاع الفجر قد وشى الهضابا
إن عهدا قد تقضى مشــــــرقا
كســـنا الشمـــس توارى ثـــم آبا

إذن كان المكان المقدس المكان المسجد وسيلة للدفاع عن المكان نفسه لأنّ المكان المفرد يحمل في دلالاته المكان العام.

كما اخترق الشاعر الجزائري حدود الزمان لاستحضار العزة والشرف من المكان والزمان إلى المكان، فعاد إلى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ،مستلهما الذكريات ومشيدا بالمبادئ، مبادئ العدل والمساواة، التي عرف بها أول

هذه الأمة، والمغزى هو استنهاض الهمم من أجل إرجاع العزة للمكان الحاضر ولأهله، كما كان الشأن في الماضي التاريخي التليد.

يقول احمد سحنون مستحضرا زمن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :[52]

ونشرت السلام والأمن والعدل

فساد الهنا وباد الخصـــــــام

أين من عصرك السعيد عصور

عم فيها العدوان والانتـــــــقام

يا رسول السلام لو قمت يوما

لترى العالمين كيف الســـــلام

المعنى يحمل دلالات تاريخية ودينية، فالذات تحاول استعادة توازنها المفقود من خلال رجوعها إلى الأصل المشرق، فجزيرة العرب استعادت هيبتها واتصل الإنسان بالمكان بشكل طبيعي مع بعثة محمد صلى الله عليه وسلم،فحلم الذات هو استعادة ذاك الزمان، فعلى الرغم من الأوضاع في المكان الآني غير مطمئنة لكن التشبث بالعقيدة والتواصل مع الأصل سيوفر الوسائل المناسبة لاسترجاع الهيبة والمكان،فهذه المعاني تستخلص من الرسالة المشفرة التي بثها الشاعر في اتصاله بعهد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم .

ب) المدرسة:

كما كان للمسجد قدسيته ومكانته ودلالاته التاريخية والروحية، إذ يعد من انسب الوسائل المكانية المسخرة في الدفاع والمواجهة، فدور العلم الأخرى كان لها أيضا وزنها، بل كانت من الأمكنة الخطيرة التي طالما طاردها المستعمر، سواء بغلقها أو هدمها وسجن وتعذيب وإبعاد القائمين عليها. نعني المدارس(القرآنية، الحرة ) إلتي كان الجزائريون يسعون لإنشائها من اجل التعلم والتربية، فالمدرسة هي من الأماكن الأكثر توظيفا في شعر تلك الفترة، فقد اعتبرت سلاحا مهما في المقاومة والتحرير، ففي المدرسة ينبذ الجهل، فيها تنمو الروح الوطنية وبها تفضح أساليب المستعمر، وقد كان لبعض الشعراء أن مارسوا مهنة التعليم التي لها وبها تغنوا واعتبروا المكان والمهنة من الأعمال المقدسة.لهذا ارتبطت المدرسة بكل ما يرمز للمقاومة ويحفاظ على الكيان. فمن بين هؤلاء الشعراء المدرسين نذكر: الشاعر المعلم محمد العيد آل خليفة، والشاعرين المعلمين الشهيدين :عبد الكريم العقون والربيع بوشامة . غير أن أمر الاهتمام بالمكان لم يكن مقتصرا على من مارسوا المهنة فحسب، بل نجد جل شعراء الجزائر كان للعلم وللمدرسة في شعرهم نصيبا، ومن ذلكنقرأ قول الشاعر مفدي زكريا يستشعر وظيفة وقيمة المكان من خلال تفاؤله بدار الطلبة وما تضيفه في خدمة الوطن:[53]

يا دار أنت على التقوى مؤسسة

بناتك بالطهر مرصوص ومشدود

يا دار حملت آمال البلاد ففي

فـــنائك اليـــوم أشبال صناديد

يا نشأة العلم يا فخر البلاد ويا

روح الجــــــزائر تقديس وتمجيد

يا نشأة العلم لا تقعد بكمك هـــمم

عن الجهاد فان الوقـــت محدود

كونوا الخلاص لشعب لا نصيب له

ممن يـــعذبه إلاّ الـــــمواعيد

وحطموا القيد والأغلال إن له

فما ،وجسما،فموصـــود، ومصفود أمانة الشعب قد شـــدت بعاتقكم

فمـــــا لغيركم تلقى المقالـــــــيد

فابنوا المدارس في عرض البلاد فما

غير المدارس للتحرير تمهيد

فالمكان مرتبط بالمقدس ومرتبط بالروحاني ( يا دار أنت على التقوى مؤسسة...) وهذا ما يعطي للمكان خصوصيته المرتبطة بتاريخ المسلمين، فثناء الشاعر على المكان ليس مقتصرا على انه مكان علم فحسب، وإنما يحاول في كل مرة ربطه بالمقدس الديني وذلك لإعطائه الصبغة التربوية والجهادية المتوفرة في دور هذا المكان الذي يربي ويعلم من اجل أن يكون الفرد حرا غير مستعبد، فبالعلم يتلاشى الجهل وبالعلم الصحيح يحافظ الفرد عن قيمه، ويرفض كل عبودية أو استغلال . وهاهو أيضا الشاعر محمد العيد آل خليفة مستبشرا بالمكان، ففي قصيدة له نظمها في سنة 1953 يثني على جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي انجزت مدرسة،ابتهج الشاعر لهذا الصنيع وهتف مستبشرا:[1]

هات البشائر للجزائر هاتها

إن الجزائر أبصرت غاياتها

[1] محمد العيد آل خليفة ديوانه، ص 24

عقدت لها عزماتها فمن الذي

غير الله يحل من عزماتها

دار التلاميذ البهيجة أصبحت

تستقبل الضيفان في غرفاتها

فاستبشار محمد العيد بالمدرسة وثنائه على ما تقدمه من خدمات لطلابها نابع من وعيه بأهمية المكان ودوره في تحرير العقول من الجهل وتحرير الأرض من المستعمر، لأنّ العلاقة منطقية فالعلم والاستبداد ضدان متغالبان، بحيث لا يهدأ للمستعمر وضع في مكان أهله على درجة من العلم وفقه الحياة. وهكذا كان دأب شعراء الجزائر في التعامل مع تلك الأمكنة، حيث مثلت لديهم أطرا فعالة تنوعت صورهم الشعرية حيالها وحلق بهم الخيال في كل مجالاتها .فقد ينطبق على إنتاجهم ما ذهب إليه بشلار حينما يشير الى أنّ صورة الوجود تكتسب عند هؤلاء الشعراء مفهومها الخاص ...الذي يتجاوز الحيز الجغرافي للمكان الى دور وأصل المكان.[2] فلقد كان المكان في النص الشعري الجزائري المحور الاول في استنطاق مشاعر الشاعر.

## الهوامش:

[1]. عبد القادر رابحي، النص والتقعيد، ج1،دار الغربللنشر والتوزيع،2003 وهران الجزائر، ص18.

[2]. عبد القادر رابحي، النص والتقعيد، ص62.

[3]– الطاهر يحياوي . محمد توامي . شعراء وملامح، ص 27.

[4] حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، ص10 .

[5]–محمود دويدة شاعر جزائري مقل ولد 1905 بقرية الطهير بقسنطينة مزدوج الثقافة (عربية ،فرنسية ) زاول مهنة التعليم .

[6]–محمد صالح الجابري، الأدب الجزائري المعاصر، ص50.

[7]– المرجع السابق، ص50.

[8] عباس عبد الحليم عباس، حتمية التغيير وهاجس الثبات، ص23.

[9] حبيب مونسي، فلسفة المكان في الشعر العربي، ص25.

[10]–ينظر الحبيب مونسي . فلسفة المكان في الشعر العربي .ص21

[11]– محمد صالح الجابري . الأدب الجزائري المعاصر .ص74

[12] . مجموعة من الكتاب .ترجمة رضوان ظاظا، مراجعة المنصف الشنوفي، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، عالم المعرفة، ص142.

[13] عبد الله الركيبي. الشاعر جلواح . ص164

[14] ارنولد هاوزر، الفن والمجتمع عبر التاريخ ،ج1، ص123

---

[2] ينظر غاستون بشلار . جماليات المكان . ترجمة غلب هلسة ص 136

[15] يوسف رزوقة ،عز الدين المناصرة شاعر المكان الفلسطيني الأول ص153
[16] محمد صالح الجابري . الأدب الجزائري المعاصر ص.305
[17] عبد الرزاق المساوي .جمالية المكان في الإبداع الشعري صفحة الويب:www.arab-ewiters.net
[18]– احمد ناصر، رمضان حمود حياته واثاره . ص165 نقلا عن يوسف ناوري ،الشعر الحديث في المغرب العربي (الجزء الأوّل )ص99

[19] ديوان ابن العقون ( أطوار) : ص59–60 .

[20]ابو القاسم سعد الله . شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة ص159
[21] المرجع السابق والصفحة 159
[22] . مكائييل باختين الزمان والمكان في الرواية، ترجمة يوسف حلاق، ص234.
[23] . محمد العيد ديوانه . ص35
[24] خالد حسين، شعرية المكان، ص 64.
[25]محمد صالح الجابري . الأدب الجزائري المعاصر ص76

°في الأبيات خلل في الوزن

[26] احمد دوغان، شخصيات من الأدب الجزائري المعاصر، ص135.
موسى الأحمدي نويوات،أديب جزائري ولد سنة 1903من تلامذة الشيخ عبد الحميد بن باديس من أعماله المتوسط الكافي في علم العروض والقوافي، ديوان شعر مخطوط .(نقلا عن احمد دوغان شخصيات من الادب الجزائري ص 129، 130)
[27] عبد الرزاق الميساوي .جمالية المكان في الإبداع الشعري صفحة ويب :www.awfaz.com
[28]محمد صالح الجابري . الأدب الجزائري المعاصر ص303
[29] محمد صالح الجابري،الأدب الجزائري المعاصر، ص51.
[30] نفسه . ص51.
[31] خالد حسين، شعرية المكان، ص63.
[32]محمد صالح الجابري،الأدب الجزائري المعاصر، ص 290.
[33] خالد حسين، شعرية المكان، ص60 .
[34] الوناس شعباني، تطور الشعر الجزائري، ص63 .
[35] عبد الله ركيبي، الشاعر جلواح، ص208
[36] محمد العيد : الديوان، ص201
[37] محمد الاخضر السائحي . همسات وصرخات ص 129
[38]احمد سحنون، ديوانه، ص 31.
[39] وليد مشوح . مكة وتجليات المكان في الشعر العربي . صفحة ويب :www.dahsha.com
[40] . احمد الطيب معاشي، التراويح وأغاني الخيام، ص336.
[41]– الشيخ احمد سحنون، ديوانه، ص 28.
[42]–المصدر السابق، ص 28.
[43] – مصدرالسابق، ص 30.
[44] . الشيخ احمد سحنون، ديوانه، ص30.31.
[45] محمد العيد آل خليفة ديوانه ص 65

[46] المرجع السابق ص 52.
[47] ابو القاسم سد الله، شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة، ص255.
[48] احمد الطيب معاشي التراويح واغاني الخيام، ص343.
[49] الفيومي سعيد محمد، فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي، ص 241
[50] ينظرالوناس شعباني . تطور الشعر الجزائري ...ص28
[51] احمد سحنون ديواته ص194.195
[52] الوناس شعباني . تطور الشعر الجزائري..ص29
[53] مفدي زكريا اللهب المقدس.269.270